محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة السادسة: التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي ج01

كون الاستعمار الفرنسي يحمل مشروعا ثقافيا يريد التأسيس له في الجزائر، فانه استهدف منذ البداية مقو ّمات الهوية لدى المجتمع الجزائري اللغة والدين والتاريخ، أي إحلال هوية محل هوية وانتماء حضاري محل انتماء حضاري ولغة محل لغة وتاريخ محل تاريخ، وهو ما جعله يسخر مؤسساته السياسية والإدارة الاستعمارية بكل وسائلها والنظام التعليمي والمؤسسات الثقافية من اجل إنجاح هذا المشروع.

لقد ساد اعتقاد لدى المحتل أن الجهل هو ما يميّز المجتمع الجزائري، الجهل الذي يحجب عنه جميل الحضارة الغربية ومزاياها، وهو الذي يلقي به إلى التعصب، وهو نتاج التعليم التقليدي، فما يؤرق الإدارة الاستعمارية لا ينم عن عداء للثقافة العربية الإسلامية في حد ذاتها، بقدرما هو تعبير عن سخطهم لجمودها حسب زعمهم، غير أن ما يؤرقهم حقيقة هو تلك البنية الثقافية المتماسكة والمتجذرة التي يأبى المجتمع الجزائري التخلي عنها.

لذلك اتّسم التعليم العربي على بساطته بالتحدي الحضاري والتوجه العربي الإسلامي للحفاظ على القيم وانتماءات الأفراد للوطن والأمة، ويلخص العالم والمربي عبد الحميد ابن باديس المسألة في كلمات: العربية لغتي الإسلام ديني والجزائر وطني.

ويحاول هذا الفصل أن يضع القارئ في صورة هذا التحدي الحضاري؛ من جهة نكشف عن التعليم الذي دعت إليه الإدارة الاستعمارية وما روجت له من غايات وأهداف من اجل تحقيق رسالة فرنسا الحضارية، والتعليم الأصلي كما يسميه سعدالله وهو تعليم ديني يعد استمرارية للتعليم الذي ورثناه عن الفترة العثمانية، اللهم تلك المدارس التي فتحتها جمعية العلماء المسلمين متأثرة بالحركة الإصلاحية التي ظهرت في مصر مع محمد عبده وغيرهم.

لاو أ.التعليم الفرنسي:

نشأت المدرسة الفرنسية متعثرة منذ البداية نظرا لرفض هذا النوع من التعليم من طرف الجزائريين، وظلت نظرة التمييز بين مكونات المجتمع تسيطر عليه(أهالي،مواطنين) مع أنّ الفرنسيين لطالما تبجحوا بنشر الحضارة والمساواة وا لغاء العبودية.

وكتب بعض الفرنسيين مناديا بترك التعليم للفرنسيين والفأس والمحراث للجزائريين، لأنّ ذلك انفع وأجدى لهم من تعلم التاريخ[1]، وظلت هذه السياسة بما تحمله من أفكار توجّه المدرسة الفرنسية، بمعنى أن يكون تعليم الجزائريين في حدود المهن التي يتسمح لهم بالتعامل مع المعمرّين كالزراعة وغيرها.

لقد كان التعليم الفرنسي الموجّه للجزائريين من البداية متّصفا بطابع التحدي اللغوي والديني والحضاري، والتعليم الفرنسي لم يعرف ولم يعاني أية صعوبات مالية أو مادية أو إدارية، كالتي عرفها التعليم التقليدي في المجتمع الجزائري، أو ما أسماه سعد الله بالتعليم **الأصلي**، كما انه في الغالب اتصف بازدهاره وتماشيه مع روح الاستعمار التي يغذيها الكولون.

1.تطور المدارس العربية الفرنسية:

لقد بدأت مدارس التعليم المزدوج في مراحلها الأولى(1830-1850) بالإهمال المطلق لتعليم الجزائريين، رغم زعم الاستعمار ان الجزائريين هم من رفضوا التعليم في المدارس الفرنسية، والواقع أنّ هذه الفترة امتازت بالتوسع العسكري والمقاومات الشعبية من قبل الجزائريين في كافة ربوع الوطن.

أمّا المرحلة الثانية (1850-1870) والتي سبقتها بسنوات تكوين لجنة خبراء من طرف الفرنسيين تمثلت مهامها في دراسة الوضع الديني واللغوي ودراسة مصير التعليم في الجزائر، واستمروا في ذلك أربع سنوات أي من عام 1846حيث انتهت التقارير إلى رسم إستراتيجية تنظم التعليم الفرنسي في الجزائر.

وعليه صدرت قرارات تخص مسألة تعليم الجزائريين خاصة ما تعلق بالمدارس العربية الفرنسية، والمدارس الشرعية الثلاث، ونلاحظ أنه بعد 1870 تم إلغاء المدارس العربية الفرنسية.

غير أنّ المرحلة الثالثة (1883-1892) شهدت عدة إصلاحات في نظام التعليم الفرنسي، كصدور مراسيم تتضمن إجبارية التعليم في فرنسا على الفرنسيين والأوربيين في الجزائر، واستثنت الجزائريين باعتبارهم أهالي.

كما حاول الفرنسيون إعادة صياغة النظام التعليمي بما يتماشى مع سياسة التمكين للاستعمار الفرنسي في الجزائر، نظرا لتغير في الرؤى للعلاقات الجزائرية الفرنسية.

ثم تأتي المرحلة الرابعة والتي استمرت إلى 1913 وهي فترة تلتها الحرب العالمية الأولى التي كاد يتوقف فيها التعليم تماما، والذي قابلته الانطلاقة الحقيقية للتعليم العربي الإسلامي في الجزائر، بداية العشرينيات من القرن الماضي، حيث وجدت فرنسا نفسها مجبرة على ملاحقة هذا التعليم ومنافسته.

وعلى العموم فان التعليم الفرنسي الموجّه للجزائريين وبلغة مزدوجة وبأهداف استعمارية، كانت له دوافع وناتج عن ضغوطات على الاستعمار الفرنسي، حيث تبلور اتجاه لدى الدول الاستعمارية يدعوا الى الاهتمام بقضايا التعليم في المستعمرات، تبعا لظهور تيارات فكرية ودينية واديولوجية في أوروبا تدعوا إلى احترام حقوق الإنسان، ولو كان إنسانا مستعمرا، وكذلك ضغوط الحركة الماركسية وبعض من رجال الدين الذين حاولوا استغلال التعليم لنشر المسيحية.[ii]

كما أن هناك عاملا آخر جعل الاستعمار يهتم بالتعليم في هذه المرحلة، وهو ظهور النهضة العربية الإسلامية في بعض الدول العربية كمصر مع محمد عبده، على أساس نشر التعليم ومحاربة الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي.

ولقد شهدت المدارس الفرنسية انتشارا واسعا في المدن، وتطورا في إعداد الجزائريين الذين التحقوا بها حيث وصل إلى 31000عام 1907 بعد ان كان عددهم 12000 عام 1893، وهو تطور نوعي في سنوات قليلة ينّم عن تغير في سياسة الاستعمار الفرنسي لرؤيته لتعليم الأهالي. والذي كان رافضا في البداية لتعليم الجزائريين.

غير ان هذا التعليم يهدف بالأساس إلى تأهيل التلاميذ إلى العمل اليدوي وشغل الوظائف والمهن التي يحتاجها الفرنسيون، وهو تعليم منفصل عن التعليم العام الفرنسي، لان النظرة الدونية للأهالي وسياسة التمييز لازمت سياسة التعليم، حيث يقول الفرنسيون آنذاك إن الطفل الجزائري ينسى ما تعلمه بمجرد عودته الى قريته، ولذلك يجب ان يتلقى تعليما مهنيا يفيده في حقله وفي داره وفي عمله عند الفرنسيين.

وعليه فان المرحلة الرابعة التي تكلمنا عنها والتي شهدت ميلاد المدرسة الفرنسية الخاصة، كان التعليم فيها موجها توجيها خاصا ويهدف إلى إخراج إنسان جزائري مسلوب من تاريخه ولغته ودينه وبيئته.

2.المدارس البربرية:

كان الاستعمار الفرنسي يبدي حرصا ظاهريا على ثقافة البربر واللهجة الامازيغية، وذلك من خلال إقامته ما يسمى بالمدارس البربرية، يقول **سوردون**:"....يجب جمع العوائد البربرية لا للمحافظة عليها وتخليدها، لأنه محكوم عليها بالاندثار أمام قانون أرقى منها، ولكن أولى لنا أن ندمجها في القانون الفرنسي، بدلا من أن تدمج في الشرع الإسلامي، .... يجب على المخزن أن يعطينا الحرية التامة في تنظيم البلاد البربرية، كما يطيب لنا وبالطريقة التي نرتضيها، لقد أصبح المغاربة لا يدركون أصلهم القديم، وأضاعوا الذكرى بأنهم برابرة، .....لقد اضمحلت العوائد العرفية أمام الشرع الإسلامي، فلماذا لا تضمحل أمام شرعنا نحن الفرنسيين؟ ألا يمكن أن يتخذ البرابرة في يوم من الأيام نفس القوانين الفرنسية؟."[iii]

فهل كانت هذه المدارس ّ أمازيغية في برامجها ولغة تدريسها؟ أم هي محاولة لإثبات التعدد الاثني واللغوي في الجزائر؟ الفكرة التي طالما حاول المستعمر إثباتها وتسويقها على أنها قضية صدامية بين عرقين مختلفين وثقافتين متناقضتين.

يقول أحد القادة العسكريين في منطقة القبائل أن العرق القبائلي يختلف عن العرق العربي من حيث اللغة والتقاليد، والشيء الوحيد الذي يقربهم من بعض دين مجرد من المبادئ الفلسفية .....وإذا أردنا تحضير هذا الشعب وتعليمه، لا بد من إلغاء الوسيط العربي، لان ضرره أكثر من نفعه، بمعنى نكلمه بلغته ونعلمه بلغتنا.

وبخصوص الغاية من إقامة هذه المدارس حددها ج. **هاردي** حين كتب قائلا:"....إن الأمر يتعلق بمدارس فرنسية بربرية تضم صغار البربر يتلقون تعليما فرنسيا محضا مع اتجاه مهني فلاحي، ويشتمل البرنامج فيها على دراسة تطبيقية للغة الفرنسية، لغة الحديث والكلام، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والحساب البسيط، وقليل من دروس الجغرافيا والتاريخ وقواعد النظافة."[iv]

أما المستشرق الفرنسي فيقول:"..إن الفرنسية وليست البربرية هي التي يجب أن تحل محل العربية كلغة مشتركة ولغة حضارة، وقوام السياسة البربرية هو العزل الاصطناعي للبربر عن العرب، والمثابرة في تقريبهم منا من خلال التقاليد." ومن جهته يوضح العقيد ب. مارتي:"...أن المدارس البربرية يجب أن تكون خلايا للسياسة الفرنسية، وأدوات للدعاية، بدلا من تكون مراكز تربوية بالمعنى الصحيح." وقد دعا لان يكون المعلمون فيها وكلاء لضباط القيادة ومتعاونين معهم، كذلك طالب بأن تكون المدرسة البربرية فرنسية بتعليمها وحياتها، بربرية بتلاميذها وبيئتها." [v]

وكان قادة الإدارة الاستعمارية في الجزائر رافضون رفضا تاما لنشاط الزوايا والكتاتيب التي تعمل على تعليم القرآن خاصة في منطقة القبائل، حيث يرون أن القبائل عرفوا اللغة العربية من خلال حفظ القرآن، حيث يقول أحدهم:"لقد عر ّ بنا وأّسلمنا القبائل الذين لم يكونوا يعرفون العربية."

3.المدارس الشرعية الثلاث:

جاء اهتمام الاستعمار الفرنسي ببناء المدارس التي تهتم بالعلوم الشرعية بهد تكوين إطارات وموظفين جزائريين تحتاجهم الإدارة الاستعمارية، أو على الأقل تسهّ ل من خلالهم الاتصال بالأهالي، مثل: العدول والتراجمة ومعلمي اللغة العربية، وقد وضعت تحت إشراف فرنسيين يتقنون اللغة العربية، قصد إبعاد الجزائريين عن التأثيرات المختلفة لعلماء الدين الأحرار في الزوايا والمساجد المنتشرة في أرجاء البلاد.

وقد تم تأسيس هذا النوع من التعليم الموجه للأهالي قصد منافسة الزوايا والمدارس التي كان لها تاثير كبير في المجتمع الجزائري آنذاك، والمنارات العلمية الإسلامية في البلدان العربية والمغرب العربي، والتي كانت وجهة علماء الجزائر مثل الزيتونة بتونس، والقرويين بالمغرب والأزهر بمصر، وتقليص عدد المتوجهين نحوها، وذلك بإبقائهم في الجزائر ومتابعة الدروس المختلفة بمستوى عال في هذه المدارس وقد أوضح الوزير روندون الهدف من إنشائها فقال:"فمن هذه المدارس يتخرج الموظفون الإداريون

والقضاة وبكلمة اعم الشخصيات والعناصر التي لها تأثير على السكان حتى لا يفلتوا من قبضتنا."[vi]

ومن جهة أخرى السعي إلى إبقاء علماء الدين الجدد المكونين فيها، على الطريقة الرسمية وذلك لتنفيذ المشاريع الاستعمارية المستقبلية باعتبارهم جزء من تلك السياسات، لإخضاع الشعب الجزائري والتمكين للاستعمار بالطرق السلمية.

إن رغبة الإدارة الاستعمارية في تقديم مفهوم جديد للإسلام يتماشى مع قيمها الاستعمارية ويكون عصريا، تحسّده هذه المدارس بمناهجها ومحتوياتها ومشايخها، وهو ما أطلقت عليه فرنسا اسم الإسلام الجزائري الذي لا يتعارض مع مصالحها ووجودها في الجزائر.

لقد قصدت فرنسا من وراء هذه المدارس إعادة هيكلة الثقافة العربية الإسلامية ولكن ذلك سيكون صعبا بسبب التناقض الذي ستشهده بين الرغبة في السير اتجاه طموحها في التعامل والتقرب من الشعب الجزائري، وبين الرفض المزدوج من الأهالي الذين يرون أنها تهدف إلى السيطرة على مشاعرهم ومبادئهم وحتى دينهم، والمعمرين الذين يرفضون كل أشكال المساواة مع الأهالي حتى ولو تعلق الأمر بتعليم مفرغ من محتواه.